

عِلْمُ الدِّفَاعِيَّاتِ المحاضرة ١٥: إِبْتِاثُ وُجُودِ اللَّهِ أ.ر. سي. سبرول

في مُحَاضَرَتِنَا المَاضِيَّةِ، تَحَدَّثْنَا بِاخْتِصَارٍ عَنِ لِحْظَةٍ فَاصِلَةٍ فِي تَارِيخِ الفِكرِ النَّظَرِيِّ، حِينَ كَتَبَ إِيمَانُويل كَانْظُ كِتَابَهُ "نَقْدُ المَنْطِقِ البَحْتِ"، مُقَدِّمًا نَقْدًا شَامِلًا لِلحُجَجِ التَّقْلِيدِيَّةِ المُؤَيَّدَةِ لَوُجُودِ اللَّهِ. وَبَعْدَ نَقْدِ كَانْظُ، وَانْهِيَارِ التَّوْفِيقِ الكُلَّاسِيكِيِّ، وَاجَهَتِ الكَنِيسَةُ السُّؤَالَ التَّالِيَّ: "كَيْفَ يُمَكِّنُنَا الآنَ تَنَاوُلَ عِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ؟ وَكَيْفَ يُمَكِّنُنَا إِثْبَاتُ وُجُودِ اللَّهِ بِشَكْلِ مَشْرُوعِ دُونَ الوُفُوعِ فِي المُشْكِلاتِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا كَانْظُ؟" وَصَرَاحَةً، قُدِّمَتِ مَنَهْجِيَّاتٌ مُخْتَلِفَةٌ لِتَنَاوُلِ الأَمْرِ.

إِحدَى المَنَهْجِيَّاتِ الرَّئِيسِيَّةِ هِيَ الَّتِي عَرَفْتُهَا بِالإِيمَانِيَّةِ، حَيْثُ يُحَاوِلُ النَّاسُ الوُتْبَ فَوْقَ الهَوَّةِ، أَوِ القَفْرَ مِنْ فَوْقِ الحِدارِ، أَوِ الدَّورَانَ حَوْلَهُ، أَوِ الحُفْرَ أَسْفَلَهُ، بِالإِيمَانِ، قَائِلِينَ: "لَا نَسْتَطِيعُ تَقْدِيمَ بَرَاهِينٍ مُفْنِعَةٍ عَلَيَّ وَجُودِ اللَّهِ، فَهَذَا أَمْرٌ عَلَيَّكَ قَبُولُهُ بِالإِيمَانِ". وَهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي اتَّبَعَهُ لَيْسَ فَقَطِ الكَثِيرُ مِنَ اللاهُوتِيِّينَ، بَلِ العَدِيدُ مِنَ المُؤْمِنِينَ أَيْضًا قَالُوا لِلنَّاسِ، لَدَى إِبْدَائِهِمْ اعْتِرَاضَاتٍ عَلَيَّ إِيمَانِهِمُ الشَّخْصِيِّ، قَائِلِينَ: "لِمَاذَا تُؤْمِنُونَ بِمَا تُؤْمِنُونَ بِهِ؟" مُجِيبِينَ: "فَقَطَّ عَلَيَّكُمْ قَبُولُ الأَمْرِ بِالإِيمَانِ". بَلِ وَالبَعْضُ تَمَادَوْا إِلَى حَدِّ القَوْلِ: "عَلَيَّكُمْ القِيَامُ بِقَفْرَةٍ إِيمَانٍ فِي الظَّلَامِ، رَاجِينَ أَنْ تَجِدُوا مَنْ يَلْتَقِطُكُمْ".

يُذَكِّرُنِي ذَلِكَ بِوَاحِدٍ مِنَ الأمثلةِ المُفْضَلَةِ لَدَيَّ الَّتِي اعْتَدْتُ سَمَاعَهَا مِنْ جِيم بُويس، حَيْثُ رَوَى قِصَّةَ مُتَسَلِّقِ جَبَالٍ، كَانَ أَعْلَى الجَبَلِ عَلَيَّ ارْتِفَاعَ أَلْفِي قَدَمٍ عَنِ السَّفْحِ، ثُمَّ فَجَاءَهُ، انْقَطَعَ بِهِ الحَبْلُ وَابْتَدَأَ يَسْقُطُ. فَمَدَّ يَدَهُ وَأَمْسَكَ بِغُصْنٍ صَغِيرٍ كَانَ نَابِتًا بَيْنَ الصُّخُورِ، فَتَمَسَّكَ بِهِ بِكُلِّ قُوَّتِهِ، وَتَعَلَّقَ بِهِ بِيدٍ وَاحِدَةٍ، عَلَيَّ ارْتِفَاعَ أَلْفِي قَدَمٍ عَنِ الأَرْضِ. ثُمَّ شَعَرَ بِأَنَّ الغُصْنَ ابْتَدَأَ يَنْكَبِرُ عِنْدَ جَانِبِ الصُّخْرَةِ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ وَصَرَخَ: "هَلْ مِنْ أَحَدٍ بِالأَعْلَى يُمَكِّنُ أَنْ يُسَاعِدَنِي؟" وَفَجَاءَهُ، سَمِعَ صَوْتًا عَميقًا بَيْنَ السُّحُبِ يَقُولُ لَهُ: "يُمَكِّنُنِي مُسَاعِدَتُكَ. ثِقْ بِي، وَأَفْلِتْ غُصْنَ الشَّجَرَةِ، وَتَحَلَّ بِالإِيمَانِ". فَنَظَرَ مُتَسَلِّقُ الجَبَالِ إِلَى أَعْلَى إِلَى السُّحُبِ، ثُمَّ إِلَى أَسْفَلَ إِلَى السَّفْحِ، ثُمَّ عَادَ لِيَنْظُرَ إِلَى أَعْلَى نَحْوِ السُّحُبِ وَقَالَ: "هَلْ مِنْ شَخْصٍ آخَرَ بِالأَعْلَى يُمَكِّنُ أَنْ يُسَاعِدَنِي؟"

هَذَا جُزْءٌ مِنْ مَسَاوِيِّ الاتِّكَالِ عَلَيَّ إِيمَانٍ أَعْمَى. وَمَعَ أَنَّ كَلِمَةَ "إِيمَانٍ" قِيَمَةٌ كَبِيرَةٌ فِي المَسِيحِيَّةِ الكِتَابِيَّةِ، نَمَّةَ فَرْقٍ بَيْنَ ذَلِكَ الإِيمَانِ وَبَيْنَ السَّدَاجَةِ وَالْحَمَاقَةِ. لَكِنَّ مُجَدِّدًا، يَقُولُ النَّاسُ إِنَّ طَرِيقَ العَالِمِ المَسِيحِيِّ هُوَ طَرِيقُ الإِيمَانِ، لَا طَرِيقُ المَنْطِقِ. وَطَرَحَ تِرْتَلْيَانُ، أَحَدَ آباءِ الكَنِيسَةِ القُدَامَى، السُّؤَالَ البَلَاغِيِّ التَّالِيَّ: "مَا لِأورشليمَ بِأَيْتَانَا؟" وَقَالَ: "أُوْمِنُ بِالمَسِيحِيَّةِ لِأَنَّهَا مُنَافِيَةٌ لِلعَقْلِ". وَإِذَا كَانَ يَقْصِدُ أَنَّهَا مُنَافِيَةٌ لِلعَقْلِ مِنْ مَنْظُورِ العَالِمِ، فَهَذَا يُخْتَلَفُ تَمَامًا عَمَّا

إِذَا كَانَ يَقْصِدُ أَنَّهَا مُنَافِيَةٌ لِلْعَقْلِ بِوَجْهِ عَامٍّ، لِأَنَّ هَذَا سَيَكُونُ طَعْنًا كَبِيرًا فِي شَخْصِيَّةِ اللَّهِ، وَشَخْصِيَّةِ الرُّوحِ الْقُدُسِ الَّذِي هُوَ رُوحُ الْحَقِّ.

يَرَى آخَرُونَ أَنَّ السَّبِيلَ إِلَى إِعَادَةِ بِنَاءِ الْإِيمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ هُوَ الْإِحْتِكَامُ إِلَى التَّارِيخِ. لَدَيْ الْكَثِيرِ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ مِنَ الدَّفَاعِيِّينَ الَّذِينَ يَسْلُكُونَ هَذَا الْمَنْحَى، مُقَرِّينَ بِأَنَّ الْحُجَجَ الْمُسْتَمَدَّةَ مِنَ التَّارِيخِ لَا تَسْتَطِيعُ الْبَتَّةَ أَنْ تُقَدِّمَ بَرَاهِينَ قَاطِعَةً، بَلْ فَقَطْ دَرَجَةٌ عَالِيَةٌ مِنَ الْأَرْجَحِيَّةِ، الْمُبْنِيَّةِ عَلَى التَّحْقِيقِ التَّجْرِبِيِّ. هَذِهِ الدَّرَجَةُ الْعَالِيَةُ مِنَ الْأَرْجَحِيَّةِ تَمُدُّ بِمَا يُسَمَّى بِالْيَقِينِ الْأَخْلَاقِيِّ. فَصَدِيقِي جُونُ وَارَوِيكُ مُؤَنِّتُومِيرِي، مَثَلًا، يُفَضِّلُ هَذَا الْأَسْلُوبَ - أَيِ الْإِسْتِنَادِ إِلَى التَّارِيخِ، وَلَا سِيَّمَا الرُّجُوعَ مِنْ يَسُوعَ التَّارِيخِيِّ إِلَى إِبْنَاتِ وُجُودِ اللَّهِ، قَائِلًا إِنَّ الْحُجَجَ الْمُسْتَمَدَّةَ مِنَ التَّارِيخِ الْكِتَابِيِّ قَدْ لَا تَمُدُّكَ بِيَقِينٍ رَسْمِيٍّ، كَذَلِكَ الْمُسْتَمَدَّ مِنَ الْإِسْتِدْلَالِ الْمُنْطِقِيِّ، لَكِنَّهَا قَطْعًا تَكُونُ وَاضِحَةً لِدَرَجَةٍ تَتْرُكُ الشَّخْصَ بِلَا مَهْرَبٍ أَخْلَاقِيٍّ. نَقُولُ فِي الْمَحْكَمَةِ الْيَوْمَ إِنَّهُ حِينَ يُتَّهَمُ أَحَدُهُمْ بِجَرَائِمِ خَطِيرَةٍ، يَقَعُ عِبَاءُ الْإِبْنَاتِ عَلَى عَاتِقِ جِهَةِ الْإِدْعَاءِ، الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُثْبِتَ أَنَّ الشَّخْصَ مُذْنِبٌ بِمَا لَا يَدْعُ مَجَالًا لِلشَّكِّ. وَبِالتَّالِي، فَالَّذِينَ يُسَمُّونَ "الْإِبْنَاتِيِّينَ"، أَيِ الَّذِينَ يَحْتَكِمُونَ إِلَى التَّارِيخِ، يُحَاوِلُونَ إِظْهَارَ أَنَّ الْبَرَاهِينَ التَّارِيخِيَّةَ تُثْبِتُ وُجُودَ اللَّهِ لِدَرَجَةٍ لَا تُفْسِحُ مَجَالًا لِلشَّكِّ الْمُنْطِقِيِّ، وَأَنَّ الْبَرَاهِينَ هَائِلَةٌ فِي أَرْجَحِيَّتِهَا، لِدَرَجَةٍ أَنَّ الْجَاهِلَ وَحْدَهُ هُوَ مَنْ سَيَرْفُضُ مَا تُظْهِرُهُ بِوُضُوحٍ.

يَكْمُنُ اغْتِرَاضِي عَلَى هَذِهِ الْمَنْهَجِيَّةِ فِي اعْتِقَادِي بِأَنَّهُ تُوِجِدُ مَنْهَجِيَّةً أَفْضَلَ، وَأَنَّهُ حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ لَدَيْنَا أَرْجَحِيَّةٌ سَاحِقَةٌ، لَا تَزَالُ لَدَى الْخَاطِئِ نَعْرَةً يَفِرُّ مِنْهَا، قَائِلًا: "أَنْتَ لَمْ تُثْبِتِ الْأَمْرَ بِمَا لَا يَدْعُ أَدْنَى مَجَالٍ لِلشَّكِّ. رَبِّمَا لَيْسَ مِنَ الْمُنْطِقِيِّ أَنْ أَشْكَ فِي ذَلِكَ، لَكِنَّكَ لَمْ تُثْبِتِ حُجَّتَكَ بِشَكْلِ قَاطِعٍ."

كَذَلِكَ، فَيَلْسُوفٌ يُدْعَى لَيْسِينُجَ أَشَارَ، تَمَثُّلًا بِنَقْدِ إِيْمَانُويلِ كَانُظَ لِلْحُجَجِ التَّقْلِيدِيَّةِ، إِلَى هُوَّةٍ كَبِيرَةٍ تَفْصِلُ هَذَا الْعَالَمَ عَنِ عَالَمِ اللَّهِ، وَقَالَ إِنَّ الْأُمُورَ التَّضَادِفِيَّةَ فِي أَحْدَاثِ التَّارِيخِ لَا يُمَكِّنُهَا الْبَتَّةَ أَنْ تُثْبِتَ الْأُمُورَ الْأَبَدِيَّةَ. كَانَتْ هَذِهِ حُجَّتُهُ الشَّبِيهَةَ لِلْعَالِيَةِ، كَمَا ذَكَرْتُ، بِحُجَّةٍ كَانُظَ.

لَكِنَّ مَجْدَدًا، هَذِهِ إِحْدَى الْأَسَالِبِ الَّتِي يَتَنَاوَلُ بِهَا الْبَعْضُ الْمَسْأَلَةَ، أَيِ التَّفْكِيرِ اسْتِنَادًا إِلَى التَّارِيخِ وَالْبَرَاهِينَ. وَفِي الْوَاقِعِ، أَوْصَفُ كَثِيرًا فِي مَجَالِ الدَّفَاعِيَّاتِ بِأَنَّيْ إِبْنَاتِيٍّ. وَحَاوَلْتُ مِرَارًا أَنْ أَوْصَحَ أَنِّي لَسْتُ كَذَلِكَ، إِلَى أَنْ اسْتَسَلَمْتُ، وَتَرَكْتُ النَّاسَ يَدْعُونِي إِبْنَاتِيًّا، لِأَنِّي أَعْلَمُ مَا يَقْصِدُونَهُ بِذَلِكَ. فَهَمُّ يَطْنُونَ أَنَّهُ يُوجَدُ فَقَطْ نَوْعَانِ مِنَ الدَّفَاعِيِّينَ: إِمَّا الْإِفْتِرَاضِيِّينَ أَوْ الْإِبْنَاتِيِّينَ. لَكِنَّ تُوِجِدُ أَنْوَاعَ أُخْرَى أَيْضًا. وَرَبِّمَا يُمَكِّنُ تَصْنِيفِي ضَمْنَ مَدْرَسَةِ الْفِكْرِ الَّتِي تُسَمَّى بِالْكَلاسيكِيَّةِ - الْمَدْرَسَةِ الْكَلاسيكِيَّةِ لِلدَّفَاعِيَّاتِ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمَدْرَسَةِ الْكَلاسيكِيَّةِ وَالْمَدْرَسَةِ الْإِبْنَاتِيَّةِ هُوَ الْآتِي: يَقُولُ الْإِبْنَاتِيُّونَ إِنَّ الْبَرَاهِينَ الْمُسْتَمَدَّةَ مِنَ التَّارِيخِ وَعَيْرِهِ تُقَدِّمُ دَرَجَةً عَالِيَةً مِنَ أَرْجَحِيَّةِ وُجُودِ اللَّهِ، فِي حِينِ يَقُولُ الْكَلاسيكِيُّونَ إِنَّ الْبُرْهَانَ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ قَاطِعٌ، أَيِ مُفْنِعٌ، بِمَعْنَى أَنَّهُ بُرْهَانٌ حَقِيقِيٌّ، يَتْرُكُ النَّاسَ بِلَا أَدْنَى عُدْرٍ.

يَضَعُ جِدًّا ادِّعَاءَ ذَلِكَ - أَيْ إِتِّكَ تَسْتَطِيعُ إِثْبَاتَ وُجُودِ اللَّهِ بِشَكْلِ قَاطِعٍ - لِأَنَّكَ إِنْ أَخْفَقْتَ فِي ذَلِكَ، سَيُعْطِيكَ الْحُجْلَ لِأَنَّكَ ادَّعَيْتَ بِكُلِّ جُرْأَةٍ أَنَّ بُرْهَانَكَ مُقْنِعٌ. لَكِنِّي أَعْتَقِدُ حَقًّا أَنَّ الدِّفَاعِيَّاتِ الْكِلَاسِيكِيَّةَ تُحَقِّقُ هَدَفَ تَقْدِيمِ بُرْهَانٍ مُقْنِعٍ.

لَكِنْ قَبْلَ دِرَاسَةِ الْمَدْرَسَةِ الْكِلَاسِيكِيَّةِ، دَعَوْنِي أَدْكُرُ مِنْهَجِيَّةً أُخْرَى لِتَنَاوُلِ الدِّفَاعِيَّاتِ، أَصَبَحْتُ هِيَ الْمَنْهَجِيَّةُ السَّائِدَةُ فِي اللَّاهُوتِ الْمُصْلِحِ، وَهِيَ مَدْرَسَةُ الدِّفَاعِيَّاتِ الْمَعْرُوفَةُ بِاسْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ الْإِفْتِرَاضِيَّةِ. وَيُوجَدُ أَكْثَرُ مِنْ نَوْعٍ مِنْهَا، كَالِإِفْتِرَاضِيَّةِ الْبِدِيهِيَّةِ، وَمُؤَيِّدَهَا جُورْدُونُ كَلَارِك. لَكِنَّ الرَّأْيَ الْإِفْتِرَاضِيَّ الْأَشْهَرَ هُوَ الَّذِي قَدَّمَهُ الرَّاحِلُ كُورْنِيلْيُوسُ فَاَنْ تَيْل، الَّذِي عَمِلَ فِي كَلِّيَّةِ وَسْتِمِنِسْتَرِ اللَّاهُوتِيَّةِ بِفِيلَادِلْفِيَا لِعِدَّةِ عُقُودٍ، وَنَشَرَ الْكَثِيرَ مِنَ الْكُتُبِ فِي هَذَا الْمَجَالِ، وَكَانَ عَمَلًا حَقِيقِيًّا مِنْ عَمَالِقَةِ الْإِيمَانِ الْمَسِيحِيِّ.

وَالْكِتَابُ الَّذِي شَارَكْتُ فِي تَأْلِيْفِهِ مَعَ جُونِ جِيرْسْتِنَرِ (John Gerstner) وَلَيْنْدِرِي (Lindsley)، يُعْطَانُ "الدِّفَاعِيَّاتِ الْكِلَاسِيكِيَّةِ"، يَحْوِي ثَلَاثَةَ نَقَدًا شَامِلًا لِلِإِفْتِرَاضِيَّةِ. وَبِسَبَبِ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي شَارَكْتُ فِي تَأْلِيْفِهِ مَعَ آرْتِ لَيْنْدِرِي وَجُونِ جِيرْسْتِنَرِ، حُضْنَا حِوَارًا مُسْتَمِرًّا دَاخِلَ الْحُقْلِ الْمُصْلِحِ، يَتَعَلَّقُ بِالْمَنْهَجِيَّةِ الْمُفْضَلَةِ لِتَنَاوُلِ الدِّفَاعِيَّاتِ. وَلَا أَنْ د. فَاَنْ تَيْل (Van Til) كَتَبَ بِاللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ لُغَتَهُ الْأُمَّ (فَقَدْ كَانَ هَوْلَنْدِي الْأَصْلِي)، كَانَ يَكْتُبُ أحيانًا بِأَسْلُوبٍ يَضَعُ فَهْمَهُ نَوْعًا مَا. وَلِهَذَا، لَا يَخْتَلِفُ نَقَادُهُ وَحَدَهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ حَوْلَ مَا يَقْصِدُهُ، بَلِ الْبَعْضُ مِنْ أَهْرَازِ تَلَامِيذِهِ أَيْضًا يَخْتَلِفُونَ مَعًا فِي تَفْسِيرِهِمْ لَهُ. فَبَعْضُهُمْ يَعْتَبِرُ فَاَنْ تَيْلَ "إِيمَانِيًّا"، غَيْرَ أَنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ الْمُفَسِّرَ الْأَقْدَرَ لِكِتَابَاتِهِ، وَهُوَ الرَّاحِلُ جَرِيْجُورِي بَانْسِن (Gregory Bahnsen)، لَمْ يَعْتَبِرْ فَاَنْ تَيْلَ إِيمَانِيًّا، بَلِ رَأَى أَنَّهُ يَقْدَمُ إِثْبَاتًا مَنْطِقِيًّا لَوْجُودِ اللَّهِ.

لَنْ أَحُوضَ الْآنَ فِي حَدِيثِ مُطَوَّلٍ عَنِ الْإِفْتِرَاضِيَّةِ، لَكِنْ سَأَكْتَفِي بِالْقَوْلِ، عَلَى سَبِيلِ التَّمْهِيدِ، إِنَّ الْمَنْهَجِيَّةَ الْإِفْتِرَاضِيَّةَ تَقُولُ مَا يَلِي: كَيْ تَتَوَصَّلَ إِلَى الْاسْتِنْتَاكِ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْجُودٌ، أَيْ كَيْ تُثَبِّتَ وُجُودَ اللَّهِ، يَجِبُ أَنْ تَبْدَأَ مِنَ الْفَرْضِيَّةِ الْأَوَّلِيَّةِ، أَوِ الْفَرْضِيَّةِ الْأُولَى، أَيْ مِنَ الْإِفْتِرَاضِ الْمُسَبِّقِ بِوُجُودِ اللَّهِ. بِتَعْيِيرٍ آخَرَ، مَا لَمْ تَبْدَأْ بِإِفْتِرَاضِ وُجُودِ اللَّهِ مُسَبِّقًا، لَنْ تَصِلَ الْبَتَّةَ إِلَى اسْتِنْتَاكِ وُجُودِ اللَّهِ.

قَطْعًا، الْإِعْتِرَاضُ الَّذِي يُبْدَى فِي الْحَالِ ضِدَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي التَّفْكِيرِ هُوَ أَنَّ الْبَدْءَ مِنْ فَرْضِيَّةِ وُجُودِ اللَّهِ ثُمَّ اسْتِنْتَاكِ وُجُودِ اللَّهِ يَنْطَوِي عَلَى مُعَالِطَةِ مَنْطِقِيَّةٍ مَعْرُوفَةٍ تُسَمَّى "مُعَالِطَةُ بَيْتِيْسِيُو بَرِيْنِكِيِي" (petitio principii fallacy)، أَوْ مُعَالِطَةُ التَّفْكِيرِ الدَّائِرِيِّ. وَتَحْدُثُ مُعَالِطَةُ التَّفْكِيرِ الدَّائِرِيِّ حِينَ يَبْدُو الْاسْتِنْتَاكِ مَوْجُودًا بِالْفِعْلِ فِي إِحْدَى الْفَرْضِيَّاتِ. فَالْاسْتِنْتَاكِ مُفْتَرَضٌ هُنَا بِالْفِعْلِ. وَبِالتَّالِي، هَذِهِ طَرِيقَةُ تَفْكِيرٍ خَاطِئَةٌ، تُبْطِلُ الْحُجَّةَ. وَهَذَا أَهْرَازُ اعْتِرَاضٍ عَلَى الدِّفَاعِيَّاتِ الْإِفْتِرَاضِيَّةِ. لَكِنَّ الدِّفَاعَ الَّذِي قَدَّمَهُ د. فَاَنْ تَيْلَ عَنْ ذَلِكَ - لِأَنَّهُ كَانَ يَعْجِي تَمَامًا أَنَّ هَذَا الْإِتِّهَامَ

سَيُوجَّهُ لِهَذِهِ الْمُنْهَجِيَّةِ - فِدَافِعٌ قَائِلًا إِنَّ آيَةَ طَرِيقَةِ تَفْكِيرِ تَسْلُكِ حَرَكَةٍ دَائِرِيَّةٍ، لِأَنَّ نُقْطَةَ بَدَايَتِهَا، وَمُنْتَصَفَهَا، وَاسْتِنْتَاجَاتِهَا جَمِيعًا مُتَّصِلَةٌ، بِمَعْنَى أَنَّكَ إِذَا بَدَأْتَ بِفَرْضِيَّةٍ مَنْطِقِيَّةٍ، ثُمَّ فَكَّرْتَ بِاسْتِمْرَارٍ بِطَرِيقَةِ مَنْطِقِيَّةٍ، سَيَكُونُ اسْتِنْتَاجُكَ مَنْطِقِيًّا. وَبِهَذَا التَّعْرِيفِ، بَرَّرَ د. فَا ن تَيْلُ اسْتِخْدَامَهُ لِلْمَنْطِقِ الدَّائِرِيِّ، قَائِلًا إِنَّهُ لَا يَخْتَلِفُ عَنِ آيَةِ طَرِيقَةِ تَفْكِيرٍ أُخْرَى، لِأَنَّ كُلَّ تَفْكِيرٍ هُوَ دَائِرِيٌّ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ. وَالَّذِينَ لَا يَتَّبِعُونَ هَذِهِ الْمُنْهَجِيَّةَ الدَّفَاعِيَّةَ يَجِدُونَ فِي هَذَا التَّبْرِيرِ لِلْمَنْطِقِ الدَّائِرِيِّ مُعَالِظَةً ثَانِيَةً مُمِيتَةً بِقَدْرِ الْأُولَى تَمَامًا.

الْمُعَالِظَةُ الْأُولَى هِيَ مُعَالِظَةُ التَّفْكِيرِ الدَّائِرِيِّ الَّتِي، بِحَسَبِ مُفْرَدَاتِ الْمَنْطِقِ الْمَعْرُوفَةِ، تُبْطِلُ الْحُجَّةَ. وَيَنْطَوِي تَبْرِيرُ اسْتِخْدَامِ الْمَنْطِقِ الدَّائِرِيِّ عَلَى الْمُعَالِظَةِ الثَّانِيَةِ، وَهِيَ مُعَالِظَةُ الْإِلْتِبَاسِ اللَّفْظِيِّ، حَيْثُ يَتَغَيَّرُ مَعْنَى لَفْظٍ مَا فِي مُنْتَصَفِ الْحُجَّةِ. فَتَبْرِيرُ التَّفْكِيرِ الدَّائِرِيِّ بِالْقَوْلِ إِنَّ كُلَّ تَفْكِيرٍ هُوَ دَائِرِيٌّ، بِمَعْنَى أَنَّ نُقْطَةَ بَدَايَتِهِ وَاسْتِنْتَاجِهِ هُمَا مِنَ النَّوْعِ ذَاتِهِ، لَيْسَ هُوَ الْمَعْنَى الْمَقْصُودُ بِالتَّفْكِيرِ الدَّائِرِيِّ. نُذْرِكُ جَمِيعًا أَنَّهُ كَيْ تَكُونُ آيَةُ حُجَّةٍ مَنْطِقِيَّةً، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَنْطِقِيَّةً طَوَالَ الْوَقْتِ. وَلَمْ نَدْعُ ذَلِكَ دَائِرِيًّا فِي حِينِ أَنَّهُ فِي الْوَاقِعِ حَظٌّ مُسْتَقِيمٌ؟ فَإِنَّكَ تَبْدَأُ بِفَرْضِيَّةٍ مَنْطِقِيَّةٍ، ثُمَّ تَسْتُخْدِمُ فَرْضِيَّةً مَنْطِقِيَّةً أُخْرَى، ثُمَّ تَتَحَرَّكُ لِتَصِلَ إِلَى اسْتِنْتَاجٍ مِنَ النَّوْعِ الْمَنْطِقِيِّ دُونَ أَنْ تَدُورَ فِي دَائِرَةٍ.

نَعْتَرَفُ بِأَنَّ ثَمَّةَ افْتِرَاضًا مُسَبِّقًا فِي الْحُجَجِ الْمَنْطِقِيَّةِ، مِثْلَ افْتِرَاضِ الْمَنْطِقِ، وَافْتِرَاضِ قَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، وَافْتِرَاضِ السَّبَبِيَّةِ، وَغَيْرِهَا مِنْ الْإِفْتِرَاضَاتِ الَّتِي قَدَّمْتُمَا فِي هَذَا الصَّفِّ، بِمَا فِي ذَلِكَ الْمُؤْتَوِقِيَّةَ الْأَسَاسِيَّةَ لِلِادِّرَاكِ الْحَسِّيِّ، وَالِاسْتِخْدَامِ التَّشَابُهِيِّ لِللُّغَةِ.

يَقُولُ الْمُدَافِعُونَ عَنْ د. فَا ن تَيْلِ، مِثْلَ جَرِيحِ بَانْسِن: "يَقْصِدُ فَا ن تَيْلُ حَقًّا شَيْئًا أَعْمَقَ مِنْ مُجَرَّدِ مُمَارَسَةِ سَطْحِيَّةٍ لِلتَّفْكِيرِ الدَّائِرِيِّ. فَهُوَ يَقْصِدُ أَنَّكَ إِذَا أَرَدْتَ افْتِرَاضَ الْمَنْطِقِيَّةِ، سَيُورِّطُكَ هَذَا بِالضَّرُورَةِ فِي افْتِرَاضِ وُجُودِ اللَّهِ، لِأَنَّهُ دُونَ اللَّهِ، لَا أَسَاسَ لِلْمَنْطِقِيَّةِ، وَلَا أَسَاسَ لِلْوُتُوقِ بِقَانُونِ السَّبَبِيَّةِ، وَلَا أَسَاسَ لِلْوُتُوقِ بِالْمُؤْتَوِقِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلِادِّرَاكِ الْحَسِّيِّ. إِذَنْ، حَتَّى وَإِنْ لَمْ تَعْتَرَفْ بِذَلِكَ، فَإِنَّكَ حِينَ تُوَيِّدُ الْمَنْطِقَ، تَفْتَرِضُ بِالْفِعْلِ وُجُودَ أَسَاسٍ لِذَلِكَ الْمَنْطِقِ، وَهُوَ اللَّهُ نَفْسُهُ". إِذَنْ، لِتَكُنْ صُرْحَاءً وَتَقُولُ جَهَارًا إِنَّ كُلَّ مَنْ يَفْتَرِضُ الْمَنْطِقِيَّةَ يَفْتَرِضُ بِالتَّالِيِ وُجُودَ اللَّهِ، وَبِبَسَاطَةٍ يُخْفِي ذَلِكَ.

أَشْعُرُ بِمَدَى أَهْمِيَّةِ ذَلِكَ، لِأَنَّنا نُوَافِقُ حَتْمًا، بِصِفَتِنَا كَلَّاسِيكِيِّينَ، عَلَى أَنَّنا إِذَا أَرَدْنَا أَنْ يَكُونَ لِلْمَنْطِقِيَّةِ مَعْنَى، وَإِذَا كَانَتْ افْتِرَاضَاتُ نَظَرِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَحَدَّثُ عَنْهَا سَلِيمَةً، فَهِيَ تُؤَيِّدُ بِأَعْلَى صَوْتِهَا وُجُودَ اللَّهِ. لَكِنَّ هَذَا تَحْدِيدًا هُوَ مَا تُحَاوِلُ الدَّفَاعِيَّاتُ الْكَلَّاسِيكِيَّةُ إِنْبَاتَهُ، وَهُوَ أَنَّكَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ مَنْطِقِيًّا، عَلَيْكَ أَنْ تُؤَكِّدَ وُجُودَ اللَّهِ، لِأَنَّ الْمَنْطِقَ نَفْسَهُ الَّذِي تَفْتَرِضُهُ يَسْتَلْزِمُ وُجُودَ اللَّهِ. لَكِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نُوضِّحَ ذَلِكَ لِلْآخَرِينَ. وَلَسْنَا نَظُنُّ أَنَّهُ مِنَ الْحَيِّدِ التَّشْوِيشِ عَلَى الْحُجَّةِ بِقَوْلِنَا: "يَجِبُ أَنْ تَبْدَأَ فِي فَرْضِيَّتِكَ وَحُجَّتِكَ مِنَ الْإِعْتِرَافِ بِوُجُودِ اللَّهِ، حَتَّى تُثَبِّتَ وُجُودَهُ"، لِأَنَّ

الْآخَرَ سَيَقُولُ: "سَابِقًا دُونَ افْتِرَاضِ وُجُودِ اللَّهِ، وَسَيَنْتَهِي بِإِي الْحَالِ إِلَى اللَّامِ مَعْنَى". وَبِذَلِكَ، تَصِيرُ النَّاتِجَةُ غَيْرَ مُرْضِيَةٍ لِلظَّرْفَيْنِ، وَهُوَ مَا يَجْرُدُ الْأَمْرَ مِنْ مَدَاقِهِ. وَلَسْنَا نُرِيدُ اجْتِيَازَ هَذِهِ الْحِزْبَةِ.

صَرَاحَةً، أَكْبَرُ اعْتِرَاضٍ لَدَيْ عَالِي الْإِفْتِرَاضِيَّةِ، إِلَى جَانِبِ هَذِهِ الْأَخْطَاءِ الْمُنْطِقِيَّةِ، هُوَ أَنَّ لَا أَحَدَ يَبْدَأُ مِنَ اللَّهِ سِوَى اللَّهِ. فَلَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَبْدَأَ فِي ذَهْنِكَ مِنَ اللَّهِ، وَمِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ، إِلَّا إِذَا كُنْتَ اللَّهُ نَفْسَهُ. فَإِنَّا نَقُولُ إِنَّا نَبْدَأُ مِنَ الْوَعْيِ الدَّائِي، وَمِنْ الْوَعْيِ الدَّائِي نَصِلُ إِلَى وُجُودِ اللَّهِ. وَلَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَبْدَأَ مِنَ الْوَعْيِ بِاللَّهِ لِتَصِلَ إِلَى وُجُودِ الدَّاتِ. فَبِالضَّرُورَةِ، عَلَى الْبَشَرِ الَّذِينَ يُفَكِّرُونَ بِعُقُولٍ بَشَرِيَّةٍ أَنْ يَبْدَأُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، أَيْ مِنْ عُقُولِهِمْ.

الِاعْتِرَاضِ الَّذِي يُبْدَى عَلَى ذَلِكَ هُوَ أَنَّنَا نَتَّبَعِي أَفْكَارًا عِلْمَانِيَّةً وَوَتْنِيَّةً. أَتَذَكَّرُ أَنِّي نَاقَشْتُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ مَعَ أَحَدِ مُؤَيِّدِي الْإِفْتِرَاضِيَّةِ، فِي لِقَاءٍ عَامٍّ مُنْذُ نَحْوِ ثَلَاثِينَ سَنَةً، حَيْثُ صُعِقَ ذَلِكَ الْأُسْتَاذُ حِينَ قُلْتُ إِنَّا يَجِبُ أَنْ نَبْدَأَ مِنَ الْوَعْيِ الدَّائِي، وَقَالَ إِنَّ هَذَا غَيْرُ كِتَابِي، لِأَنِّي بِهِذَا افْتَرَضْتُ اسْتِقْلَالِيَّةَ الدَّاتِ، وَلَيْسَ سِيَادَةَ اللَّهِ، وَهَذَا تَحْدِيدًا مَا فَعَلَهُ آدَمُ وَحَوَاءُ فِي جَنَّةِ عَدْنِ، حِينَ تَمَرَّدَا عَلَى اللَّهِ. فَالْبَدْءُ مِنَ الدَّاتِ، وَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ، طَرِيقَةٌ آثِمَةٌ وَسَاقِطَةٌ وَفَاسِدَةٌ لِلتَّفَكِيرِ.

أَجَبْتُهُ: "أَوْافُكَ تَمَامًا عَلَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ أَوَّلُ افْتِرَاضَاتِي، أَيْ فَرْضِيَّةِي الرَّئِيسِيَّةِ فِي التَّفَكِيرِ، هُوَ اسْتِقْلَالِيَّةَ دَاتِي، أَكُونُ مُدْنِبًا بِارْتِكَابِ كُلِّ مَا تَقُولُهُ، وَمُعْتَبِقًا لِلْوَتْنِيَّةِ، وَلَنْ يَنْتَهِي بِإِي الْحَالِ، إِذَا ظَلَمْتُ مُتَسَقِّمًا، إِلَّا بِتَأْلِيهِ الدَّاتِ وَرَفُضِ اللَّهِ". ثُمَّ قُلْتُ: "لَسْنَا نَبْدَأُ مِنَ اسْتِقْلَالِيَّةِ الدَّاتِ، بَلْ فَقَطَّ مِنَ الْوَعْيِ بِالذَّاتِ". وَذَكَرْتُ صَدِيقِي بِأَنَّ أَوْغُسْطِينُوسَ نَفْسَهُ قَالَ إِنَّهُ مَعَ الْوَعْيِ الدَّائِي يَأْتِي دَائِمًا وَيَشْكَلُ مُبَاشِرٍ وَعَمِّي بِالْمَحْدُودِيَّةِ. فِيهِ اللَّحْظَةُ الَّتِي تَعِي فِيهَا ذَاتَكَ، تُدْرِكُ أَنَّكَ لَسْتَ مِنَ اللَّهِ. وَهَذَا مَا قَالَهُ كَالْفَنِّ أَيْضًا. وَأَقُولُ إِنَّ الْاسْتِقْلَالِيَّةَ، أَيْ أَنْ تَكُونَ قَائِمًا لِنَفْسِكَ، لَا تَنْدَرِجُ صِغْرًا فِكْرَةَ الْوَعْيِ الدَّائِي. فَلَوْ كَانَتْ تَنْدَرِجُ صِغْرًا، لَكَانَ الْبَدْءُ مِنْ هَذِهِ الثَّقُطَةِ خَطِيئَةً. لَكِنَّا نَقُولُ إِنَّ الْبَدْءَ مِنَ الْوَعْيِ الدَّائِي أَمْرٌ فِي صَمِيمِ طَبِيعَةِ الْمَخْلُوقِ. فَهُوَ الثَّقُطَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي يُمَكِّنُ لِأَيِّ ذَاتٍ أَنْ تَبْدَأَ مِنْهَا فِي التَّفَكِيرِ. لَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَنْطَلِقَ فِي عَقْلِكَ مِنْ فِكْرِهِ، أَوْ مِنْ فِكْرِي، أَوْ مِنْ فِكْرِ اللَّهِ. الْأَمْرُ الْوَحِيدُ الَّذِي تَبْدَأُ مِنْهُ هُوَ وَعَيْكَ الدَّائِي، وَمِنْهُ تَنْتَحَرِكُ، لِأَنَّكَ ذَاتٌ. وَسُرْعَانِ مَا سَتَكْتَشِفُ أَنَّكَ لَسْتَ مُسْتَقِلًّا عَلَى الْإِطْلَاقِ. هَذَا مَا نَقُولُهُ - إِنَّكَ إِنْ بَدَأْتَ مِنَ الْوَعْيِ الدَّائِي، وَفَكَرْتَ بِطَرِيقَةٍ صَاحِبَةٍ، لَنْ تَصِلَ إِلَى الْاسْتِقْلَالِيَّةِ، بَلْ فِي الْوَاقِعِ سَتَصِلُ بِالضَّرُورَةِ إِلَى تَأْكِيدِ وُجُودِ اللَّهِ.

مُجَدِّدًا، هَذِهِ نَظَرَةٌ عَامَّةٌ مُحْتَصَرَةٌ جِدًّا، لِأَنَّ هَذَا الْجَدَلُ لَا يَتَوَقَّفُ. وَقَدْ حُضْنَا مُنَاقَشَاتٍ كَثِيرَةً فِيمَا بَيْنَنَا. وَهَذَا جَدَلٌ دَاخِلِيٌّ يَدُورُ بَيْنَ الْمُفَكِّرِينَ الْمُصْلِحِينَ الَّذِينَ، فِيمَا عَدَا هَذِهِ الْمُنْهَجِيَّةِ الدَّفَاعِيَّةِ، يَتَفَقُّونَ مَعًا عَلَى كُلِّ عَقَائِدِ الْإِيمَانِ الْمُصْلِحِ الْأَسَاسِيَّةِ. لَكِنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ مَعًا حَوْلَ الْأَسْلُوبِ الْمُنَاسِبِ اسْتِرَاطِيَجِيًّا وَلَاهُوتِيًّا لِلدَّفَاعِ عَنِ اللَّهِ. يَخْشَى الْإِفْتِرَاضِيُّونَ أَنْ يُقَدَّمَ الْجَدَلُ بِطَرِيقَةٍ مَنْطِقِيَّةٍ وَتَجْرِبِيَّةٍ تَنَازُلَاتٍ كَثِيرَةً لِلْعَالَمِ الْوَتْنِيِّ. وَبِالطَّبَعِ، يَخْشَى الْكَلَّاسِيكِيُّونَ

أَيْضًا تَقْدِيمَ الْإِفْتِرَاضِيِّينَ لِنِزَاجَاتٍ كَثِيرَةٍ، مُقَدِّمِينَ لِلْوَثْنِيِّينَ بِهَذَا مُبَرَّرًا لِعَدَمِ الْإِيمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ، لِأَنَّ الْوَثْنِيِّينَ سَيَلَاخِظُونَ بِوُضُوحٍ أَنَّ مِنْهَجِيَّتَهُمْ تَنْتَهِكُ مَبَادِيءَ الْمَنْطِقِ.

لَكِنْ ثَمَّةَ أَمْرٍ نَتَفَقُّ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَهُوَ أَنَّ إِثْبَاتَ وُجُودِ اللَّهِ هُوَ الْفَرْضِيَّةُ الْأَهْمُ لِإِنْبَاءِ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَنَظَرَتِهِ إِلَى الْعَالَمِ، وَأَنْتَنَا نَعْلَمُ أَنَّ مَا يَفْعَلُهُ الْوَثْنِيُّونَ، بِحَسَبِ رُومِيَّةِ الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ. فَأَوَّلُ كِذْبَةٍ يَقْبَلُونَهَا هِيَ إِنْكَارُ قُدْرَةِ اللَّهِ السَّرْمَدِيَّةِ وَلَاهُوتِهِ. وَعِنْدَيْدِ، يُظْلِمُ قَلْبُهُمْ. وَكَلَّمَا زِدَادَتْ مَهَارَتُهُمْ، زِدَادًا انْتِعَادُهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْوَعْيِ الْأَوَّلِ بِاللَّهِ الَّذِي يَكْتَسِبُونَهُ مِنَ الطَّبِيعَةِ.

إِذْنًا، نَتَفَقُّ جَمِيعًا عَلَى الْأَهْمِيَّةِ الْفُضُوصَى لِإِثْبَاتِ وُجُودِ اللَّهِ فِي مَرَحَلَةٍ مُبَكَّرَةٍ مِنْ مُمَارَسَتِنَا لِلدَّفَاعِيَّاتِ. فَهَذَا أَوَّلُ مَا يَنْبَغِي إِثْبَاتُهُ. وَنَتَفَقُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَحْتَلُّ الْمَرْتَبَةَ الْأُولَى فِي الْوُجُودِ. لَكِنَّ الْخِلَافَ يَتَعَلَّقُ بِمَا يَأْتِي أَوَّلًا فِي عَمَلِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ. فَإِنَّا نَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يَحْتَلُّ الْمَرْتَبَةَ الْأُولَى فِي تَرْتِيبِ الْوُجُودِ، لَكِنْ لَيْسَ الْمَرْتَبَةَ الْأُولَى فِي تَرْتِيبِ الْمَعْرِفَةِ. وَفِي مُحَاضَرَتِنَا الْمُقْبِلَةِ، سَأَبْدَأُ بِتَوْضِيحِ كَيْفِيَّةِ تَقْدِيمِ الدَّفَاعِيَّاتِ الْكَلَّاسِيكِيَّةِ دِفَاعَهَا عَنْ وُجُودِ اللَّهِ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيرِ، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقِدِّيسِ أَنْدْرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلِاصْلَاحِ (Reformation Bible College) وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كَلْنَا لَاهُوتِيُونَ" و"أَدَهْسِنِي الْأَمَّ".